

• هوية الذات بين الثابت والمتحول

مقاربة سيكوتكوينية لمجموعة "أقبية المدينة الهاربة" لنورة سعدي * أنموذجا.

الباحثة: فيروز زوزو

قسم الآداب واللغة العربية

كلية الآداب واللغات

جامعة محمد خيضر - بسكرة

>> لا تحتوي أي لغة منفردة على مجموع الحكمة الإنسانية <<

الشاعر إزرا باوند

تمهيد:

إن كلية المجتمع لا يمكن إدراكها على المستوى الإبيستيمولوجي، إلا إذا كانت الذات التي تطرحها ذات كلية، وهذه النظرة الخاصة بكلية الذات تعمق مفهوم الهوية الاجتماعية كما تؤسس لمفهوم الهوية الفردية، وذلك بإضافة مفهوم الذات الذي يقود إلى دراسة الوعي الفردي.

من هذا المنطلق، نتعرف على العهد الجديد الذي حلّ في الجزائر، عهد شقت فيه المرأة طريقها نحو تحقيق ذاتها بالعلم والعمل لتشكل هويتها الخاصة، والمبدعة كذات لم تحاول هويتها الفردية كسر الثابت، وإنما حاولت أن تجد لها طريقا تسلكه لترتبط إبداعها بالواقع الاجتماعي في الجزائر و بالتاريخ الإنساني في العالم، لذا تتوضّح هوية الذات المبدعة من خلال موقعها بالنسبة للمجتمع في صراعها مع الواقع في مختلف أشكاله.

إن مرحلة بناء هوية الذات المبدعة مرحلة أزمة حيث تسعى إلى تفتيت سقف الأفكار و المواقف بعد التعرف على الذات و محاولة تحقيقها مع تحديد القيم التي ستبناها و الاتجاهات التي ستختارها لتحديد طريقة تفكيرها و حياتها، إنها ولادة ثانية كما يقول "جان جاك روسو"

وباعتبار الأدب >> ظاهرة من ظواهر الوعي الاجتماعي لدى الناس المرتبط بالظروف الاجتماعية و التاريخية و المتغير بتغيرها <<(1) ، سعى البنيويون ذوي النزعة الاجتماعية إلى إقامة جسر يربط الفكر الأيديولوجي بالفن >> المتكلم في الرواية هو دائماً، وبدرجات مختلفة، منتج أيديولوجيا و كلماته هي دائماً عينة أيديولوجية ، و اللغة الخاصة برواية ما، تقدم دائماً وجهة نظر خاصة عن العالم <<(2)

لقد ساعد علماء النفس أصحاب البنيوية التكوينية في فهم أفضل للمبادئ المعرفية وتحديد أدق للمفاهيم الإجرائية، و هو أمر لم ينكره " غولدمان" بل تجلى ذلك في كتاباته.

وعليه نعد في هذه المداخلة إلى قراءة سيكوتكوينية لمجموعة "أقبيبة المدينة الهاربة"،

كما نؤكد في هذه المداخلة على بعدين أساسيين هما:

1- تحديد المفاهيم الأساسية المؤطرة للعمل الإبداعي.

2- إقامة ربط بين هوية الذات و المجتمع وفق منظور الثابت و المتحول.

1- الذات و الهوية من النظرية النفسية إلى البنيوية التكوينية: في المفهوم والماهية:

1-1- التحليل النفسي و مفهوم الذات:

يعرف علماء النفس الذات بأنها كينونة الفرد أو هي آراء الشخص عن نفسه ، كما

يروون أن كل فرد يعاني من مشكلتين أساسيتين هما:

1- كيف يجب أن يتعامل مع ذاته.

2- كيف يجب أن يتعامل مع البيئة و المجتمع الذي يعيش فيه.

وعليه فإن دراسة مفهوم الذات تعد عاملاً مهماً لمعرفة كيفية توجيه سلوك الفرد مع

نفسه و مع الآخرين ، حيث أن الطريقة التي تُدرك بها الذات هي التي تحدد نوع الشخصية،

و كيفية تصرفها إزاء المواقف >> إن القدرة على تكوين مفهوم للذات، حسب رأي ليفنجر،

تزداد بزيادة السن والذكاء و التعليم والمستوى الاجتماعي-الاقتصادي <<(3)

أكد علماء النفس أن مفهوم الذات يأتي من التوافق الذي يحسه الشخص أي كيف

يدرك الشخص ذاته، وما يشعر به من الاتزان أو السعادة، وهو ذلك الرضا، و السلم،

وانخفاض مستوى القلق، والانفتاح على أفكار جديدة، والقدرة على تقليل الصراع الداخلي،

والثقة، وكلما كان الإحساس الداخلي مرتفع في تقدير الذات وفهمها كان سبب تحقيق التوافق

متوفراً، وعليه تحقق هوية الأنا.

>> التعريف بهرم" ماسلو" للحاجات الإنسانية:

الحاجة إلى تحقيق الذات
الحاجة إلى تقدير الآخرين وتقدير الذات
الحاجة إلى الحب و الانتماء
الحاجات الأمنية (الحاجة للأمن والاستقرار والنظام والحماية والتحرر من الخوف والقلق)
الحاجات الفسيولوجية (الحاجة للهواء والماء والطعام وووو.....)

<<(4) .

1-2- الاتجاه النفسي اجتماعي و ماهية الهوية :

- حين >> أطلق "وليم جيمس" أشهر تعريف للذات و هو: "إحساس الفرد بالهوية" <<(5)
- ، فهذا يعني أن الشعور بالذات هو المصدر الأساسي للهوية . >> و قد وصف "اريكسون" ثمانى مراحل لنمو الهوية هي:
- الثقة مقابل الشك و الريبة.
 - الاستقلالية مقابل الخجل و الشك.
 - المبادرة مقابل الشعور بالذنب.
 - المثابرة و الإنجاز مقابل الشعور بالنقص.
 - تحديد الهوية مقابل غموضها.
 - الألفة و التماسك مقابل العزلة.
 - العطاء و الإنتاج مقابل الانغلاق الذاتي و الركود.
 - تكامل الأنا مقابل اليأس و القنوط . <<(6)

إذن هوية الشخص قد تعرف من خلال معطيات عدة مثل: عقيدته، لغته، ثقافته، تاريخه، حضارته و كذلك أيضا من خلال: شكله ، اسمه ، صفاته ، جنسيته ، عمره ، و تاريخ ميلاده ، إنها تدل باختصار على ميزات أساسية فيه تجعله مختلف عن الهويات الأخرى .

1-3- البنيوية التكوينية:

ظهرت البنيوية التكوينية على يد: "غولدمان"، وساهم في التأسيس النظري لها كل من : الفيلسفة الماركسية، إبستيمولوجيا "جان بياجيه"، وكتابات "لوكاتش" الشاب.

- >> 1- الفلسفة الماركسية: حيث استقصى مفاهيم مركزية من ماركس .
- 2- إبيستيمولوجيا جان بياجيه: هذه المعرفة التكوينية التي أفاد منها غولدمان أمران هامان هما:
- أ- أن السلوك النفسي المحرك لكل فرد، يكمن في علاقاته مع الوسط المحتضن .
- ب- نظرية الذكاء التي تنتهي عند بياجيه من إعطاء الاعتبار لتفاعل الفرد و محيطه.
- 3- كتابات لوكاتش الشاب⁽⁷⁾ .

ينظر " غولدمان" إلى الفن على أنه جزء من البنية الفوقية للمجتمع، جزء لا يمكن تجديده بعيدا عن العوامل الاقتصادية و الاجتماعية و السياسية المكونة للبنى التحتية لهذا المجتمع.

يتمتع المنهج التكويني بعدة مرتكزات هي: الفهم و التفسير- البنية الدالة - رؤية العالم و الوعي الفعلي و الوعي الممكن .

1-3-1- الوعي الفعلي و الوعي الممكن:

يرى " غولدمان" أن الوعي الفعلي هو وعي قائم في الواقع، وعي بالحاضر، أما الوعي الممكن فينشأ من الوعي القائم و لكن يتجاوزه ، إذن الوعي بالحاضر يولد وعيا نقدياً[>] حين حدّد ماركس العمل في شكله الإنساني الخالص قال: "إن ما يميز أسوء مهندس معماري في مملكة النحل عن الأتجح هو أنه يبني الخلية في ذهنه قبل أن يبنيتها خلية في الواقع (...)، وهكذا بالنسبة لماركس يبدأ الإنسان والتاريخ الإنساني، مع بروز الهدف الوعي للمشروع الذي سيبسط سيطرته من هنا فصاعداً دون أن يكون هناك انقطاع في السلسلة السببية^{>>(8)}.

نشأت الرواية لتعبر عن ثنائية لم تكن موجودة من قبل ألا و هي: ثنائية (البطل/العالم)، حيث البطل فرد منفصل عن العالم مما يفقده توازنه فيصبح شخصا مأزوما، ونتيجة لذلك يقوم بعملية بحث عن قيم أصيلة في عالم منحط، عالم سيطرت عليه علاقات الرأسمال على كافة مرافق الحياة وعمّ الاستغلال والربا والفحش والفردانية والتعطش إلى القوة، حب المال، بهاته القيم البورجوازية التي تطعمت بها البورجوازية الرأسمالية حاولت تسخير كل شيء من أجل تطورها وتجذرها واستمراريتها.

إن العملية الاجتماعية العامة و ما رافقها من تحولات في البنيات التحتية، ومن تطور في البنى الفوقية أصبحت موضوعات للرواية، حيث تعالج تحول الأدب، وتجسد المأساة العامة لجيل هذه الحقبة في نماذج اجتماعية بالغة النفاذ والعمق والتعقيد. إن هناك علاقة مشتركة بين البنية الذهنية التي تشكل الوعي والبنية الجمالية التي تشكل العمل الفني.

2- نحو قراءة سيكوتكوينية لمجموعة "أقبية المدينة الهاربة" لنورة سعدي: 2-1- الخطاب القصصي والوعي القائم:

إن الخطاب القصصي لا يمكنه أن يتأسس بعيدا عن البنية الثقافية والسوسيولوجية للذات الكاتبة، فهو إنتاجها الإبداعي، لذا يعرفه سعيد يقطين قائلا: >> بنية دلالية تنتجها ذات (فردية أو جماعية) ضمن بنية نصية منتجة<<⁽⁹⁾.

إن مجموعة "أقبية المدينة الهاربة" ل: نورة سعدي" من كتاباتها النثرية الأولى التي نشرتها سنة 1983، وهي لا تتطرق في التأسيس لمشروعها الإبداعي من رؤية فكرية أيديولوجية مقننة لكن تحاول تقديم صراعا قائما حول المبادئ الإنسانية في رغبة حقيقية منها لانتصار قريب لرفقائها الأبدنين: الحرية، العدالة الاجتماعية والسلم، كما تعالج واقع المرأة الجزائرية والرجل المهزوم ، والشباب المغترب عن وطنه ، والأم الموحدة و... من موقعها كأنثى مثقفة وفتاة جزائرية تطمح لرد الظلم عن الطبقة الكادحة، ذلك لأن العملية الإبداعية ليست مجرد انعكاس للواقع، هي أعمق بكثير.

إن تواجد المبدعة في مجتمع مليء بالتناقضات يوجد لديها دون وعي منها، وبوعي سردي كامل توافق نفسي وفكري واجتماعي مع جماعة اجتماعية معينة ، حتى وإن لم تكن منتمية لها أصلا و هذا يحدث تعارضا ثقافيا يولد عنه صراعا تنقله لنا عبر نتاجها الأدبي . إن الروح المغترية تستجير بالأشكال الفنية ، طامعة في أزمنة لا صراع فيها ، أزمنة تتوحد فيها الروح مع الأشكال.

استطاعت الأدبية "نورة سعدي" أن تنقل لنا وعيها الفردي الذاتي، وهو وعي نقدي ناتج عن الصراع بين الذات والعالم، واختلاف في الرؤى الحضارية ، فنقول في قصة "أقبية المدينة الهاربة":

>> حاولوا أن يقتلوا في كل طموح، ليس من طبعي اختراق حريات الآخرين فعلاّم يصرون على تلوين أجوائي وخنقي؟ تحصلت على شهادتي بعد عذاب وسهر طويلين...

منضبط، ملفي يؤكد هذا ، نقطة ضعفي الوحيدة أنني لا أجيد التملق و التمسح بالأحذية و استعمال الشيتة ، الشيتة نقطة تدارك يجب أن تضاف إلى الشهادة لتصبح فعالة، صدقني لم أحاول ترويض نفسي عليها أو إجراء تمرينات بخصوصها مبدئي عش كريما أو مت شهيدا. أنا لست مثلك . <<(10)

أما حين تريد البوح عن عشق اسمه : الجزائر تنقل لنا آلام شاب مغترب، فتعبر عن أحزانه ، إنها لا تهتم بوصف شكله و لا تذكر لنا اسمه ، إنها فقط تريد الغوص في أعماقه لتعكس لنا حالته النفسية ، و أوضاعه الاجتماعية ، تقول في قصة "التجديف في الاتجاه المعاكس":

>> رفع هديه في حزن ظاهر ... حدّق فيها ملياً و توجه إليها بالحديث مناجيا

نفسه:

- ستكون الليلة الأخيرة... دقائق قلبي تتذرنني أن زوبعة ما ستبتلعني، البحر ما عاد صافياً ... مجدافي يغوص في الطين... العلم في نقطة قريبة منه يلوح أحمر تشرب من دماء أبرياء جاليتي، دمائمهم التي ذهبت هدرا <<(11).

إن كل وعي هو تمثيل ملائم لجماعة اجتماعية على أرض الواقع، فمن منطلقات البنيوية التكوينية:

أن كل واقعة اجتماعية هي واقعة وعي، لذا نجدها لا تتردد في تأكيد ذلك قائلة على لسان بطل قصة "فنان":

>> يعود إلى لهجة التمويه و لعبة الكلمات المتقاطعة: و أنت إلى أي فئة من الناس

تنتمي؟

- ليس من اللائق أن أزكي نفسي.
- حسنا فهمت أنه تواضع الفنان لم أكن أتصور أن المرأة التي قرأت لها كل ذاك الحب والوله في كتاباتها مترممة إلى هذا الحد؟ الفن ، الحرية، انطلاق، جرأة.
- الفن هو كل الذي وصفت، فقط يجب أن نفرق بين فنان مصاب و فنان معافي، مثلما يلاحظ أن الفرق الشاسع بين إنسان فاجر و إنسان طاهر .
- هل أدخل شروحك في أمور فلسفية بحثة؟
- أنا لا أتفلسف، هذا هو مبدئي، وجهة نظري في الذي جعلني أسمعته دون استئذان. <<(12)

الأدبية الجزائرية حقا لا تتوانى في تسجيل هموم المرأة و التي هي من صميم الرسالة التي تريد إرسالها للمتلقي، و ذلك بلغة عربية فصيحة، الإيجاز عندها له معنى ومغزى . إنه لب اللباب ، تقول في قصة "وجهان لامرأة واحدة":
>> نعم عاد كل شيء في الوجود إلى وضعه الطبيعي إلا أنا لم أعد بعد إلى ذاتي ! <<(13)

2-2- الرؤية السردية والوعي الممكن:

دل ضمير الأنا المتكلم في العمل الأدبي على وجود هوية ذاتية هي الذات الثانية بعد المؤلف الواقعي، يدعى : السارد .

إن السارد بضمير المتكلم يحق له التواجد في عالمه كسارد أو التواجد داخل العالم الذي يحكي عنه، كأن يرتدي القناع تارة أو يتواجد عبر المرأة تارة أخرى >> إن ظهور السارد يجعل السرد داخليا ، بحيث يصبح جزء من أحداث القصة يساهم في صنعها و بالتالي فهو جزء من صنع المؤلف الذي يصنع العالم الأدبي، و هذا الجزء يمس الجانب التخيلي <<(14)
تطابق الهوية بين الكاتب و الشخصية مشكلة تواجه الباحث و هذه تظهر عادة حين يتم السرد بضمير المتكلم فيختلط حابل الأنا الساردة بنايل الأنا الشخصية الحكائية حتى نتصور أننا أمام سيرة ذاتية. قصة "حفريات على جدران من لحم" نلاحظ فيها هذا التشظي ، تقول: >>الطوفان ، الطوفان ، و إني أغرق أغرق حتى القاع ! (...). أقاوم الأعاصير، أتحدى النزيف الموجع، الألام قاتلة كحد السيف ، و لكن ندائي صرخة ليلية في وادي حضرموت (...). ينبض رأسي من ثقله كالقلب، تختلط الأمور و القيم ، أصاب بعمى الألوان و أفقد القدرة على التمييز ! الغثيان يعانقني يضغط علي بعنف يجتث قلبي من صدري و تتحول حرارة النار إلى رماد ينزف مرارة الواقع . <<(15)

إن لدى السارد إمكانية الرؤية، و عليه حين يبحث عنه في المتن الحكائي قد نجده قابعا هناك يرقب الأحداث متحكما فيها من زاوية "الرؤية من الخلف" كملاحظ ، و قد يشارك أحيين أخرى ، تقول في قصة "المتنرد الصغير": >>وجاء الأمير المنتظر ، كانت عيناه تشعان ببريق إلهي بديع بحثت عبر مساحة جسده الطفولي المتألئ عن أثار جريمتي، حمدت الله على أنه وقاه شر الخدوش و الأورام، ضمته إلى قلبي في مهرجان من الابتهاج و الحنو، ضغطت على شفته الكرزية بسبابتي و ناجيته: " أمير الحبيب، صغيري الجري،

غداة تكبر أيها الثائر الصغير سأسرد عليك قصتي المشينة معك ، فالتسامح من شيمة الثوار ، و ستغفر لأملك زلتها .<<(16)

تترأى ومضات الوعي الممكن هنا و هناك في مجموعة " أقبية المدينة الهاربة" لكونها وثيقة الصلة بالبيئة الفكرية للمبدع ، و هو مرتبط بالتطلعات المستقبلية. يوكل "غولدمان" إلى العمل الأدبي وظيفية التعبير عن الوعي الممكن >> و كما قال أرنست بلوخ: " إن في أي لحظة يوجد حقل الممكن ، وأن الاختيار الإنساني يعد أمرا ضروريا لتحقيق هذا الممكن" ، و هكذا فالتاريخ ليس قدريا و لا اعتباطيا.<<(17)

تتطلق قصص مجموعة "أقبية المدينة الهاربة" من الوعي القائم و تتجاوز إلى وعي آخر ممكن مفسرا الحالات النفسية و الظروف الاجتماعية التي تعيشها الشخصيات، تتحدد مستويات الوعي في المجموعة عبر أفكار الشخصيات، وعي ممكن يمثله مثلا: الشاب المغترب في قصة "تجديف في الاتجاه المعاكس" حين يقول: >>صفارة إنذار تقول لي: إرحل ... إرحل... ليل الغرباء أبيض ... خبز الغرباء أشعت ،عمر الغرباء قصير<<(18). إنه يأمل من جديد في غد أكثر إشراقا في وطنه حتى و إن مات دون ذلك.

تتعهد المبدعة إخفاء الأسماء، و لكن تخلق جواً من الألفة بين الشخصيات والقارئ ، تقول في قصة "ظل رجل": >>بعد أسبوع سنلتحم و إلى الأبد، و سنبداً الرحلة في ثبات، لقد قررت أن أقتلع كل الطحالب التي كانت تشكل نصفي الهمجي و لن أبقى من الجذور إلا ما أراه ضروريا (...). نعم ستغدودق حياتنا حيا و وفاء وسنواصل الدرب الطويل في ثبات.<<(19)

حين تبدأ الشخصيات في نقد واقعها فهم بذلك يحاولون إعطاء البديل الذي يدخل ضمن وعيهم الممكن، لقد وصلوا أخيراً إلى أقصى درجة من الوعي القائم من خلال تحليل وتشخيص تشوهات واقعهم. فتقطنوا لموقعهم و حالتهم و بدؤا في التفكير في التغيير. إن صراعهم مع الثابت هو من أجل فسح المجال للمتحول أن يدخل في نطاق الوعي الممكن الذي هو وعي مستقبلي بالنسبة لهم.

• خلاصة (وجهة نظر):

لقد أرادت الأدبية "ثورة سعدي" أن تقدم نماذج من المجتمع الجزائري و من شرائح مختلفة، لتحقيق رؤية مختلفة انطلاقا من وعيها بذاتها و لهويتها التي تشكلها بتروي، و دون خوف من أي شيء.

إن أزمة الهوية لدى الذات المبدعة جعلتها تكتب قصصا تخيلية مرجعها الواقع وهي بذلك قد جسدت بحق المقولة الغولدمانية عن الوعي القائم و الممكن. سنتقى الكتابة النسوية في الأدب الجزائري في رحلة بحثها عن ذاتها ومحاولة تأكيد هوية الأنا و تحقيق الهوية الذاتية عزفا سرديا جميلا في سمفونية الهوية الجزائرية .

الهوامش

- * نورة سعدي من مواليد 1956 بمدينة قالمة، أم و أستاذة للأدب العربي، عملت محررة بمجلة الجزائرية في فترة الثمانينات حين كانت رئيسة التحرير وزيرة الثقافة زهور ونيسي، معدة لبرنامج ثقافي إذاعي دام أكثر من عشر سنوات، صدر لها مجموعتان شعريتان: جزيرة حلم، خفقات شاعرة، و لها مجموعتان قصصيتان: أفيية المدينة الهاربة، أصابع أيلول.
- 1- نقلا عن: ع ن يوسيلوف، تطور نظرية الفن في روسيا و المدرسة الجمالية الجديدة، تر: يوسف الحلاق، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1968، ص: 221 .
- 2- ميخائيل باختين، المتكلم في الرواية ، تر: محمد برادة، مجلة فصول، المجلد 5، ع 3، 1985 ، القاهرة ، ص: 105 .
- 3- غازي صالح محمود، شيماء عبد مطر، مفهوم الذات، المجتمع العربي للنشر و التوزيع، عمان، 2011، ص: 13 .
- 4- حمدي علي الفرماوي ، الحاجات النفسية في حياة الناس اليومية (قراءة جديدة في هرم ماسلو)، دار الفكر العربي ، القاهرة، 2011، ص:7.
- 5- المرجع السابق، ص: 20.
- 6- بوسنة عبد الوافي زهير ، علم النفس النمو و نظريات الشخصية ، منشورات مخبر التطبيقات النفسية و التربوية ، قسنطينة ، 2012 ، ص:96 .
- 7-لوسيان غولدمان، العلوم الإنسانية و الفلسفة، تر: يوسف الأنطكي، مرا: محمد برادة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1996، ص: 26،27،28،29 .
- 8- روجيه غارودي: الماركسية، تر: محمد الأمين بحري، دار الحكمة للنشر، الجزائر، 2009، ص:21.
- 9- سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي (النص/السياق)، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2001، ص:32.

- 10- نورة سعدي، أقبية المدينة الهاربة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص: 27.
- 11- المصدر نفسه، ص: 39، 40 .
- 12- المصدر نفسه، ص: 71، 72.
- 13- المصدر نفسه، ص: 80.
- 14- نزيهة زاغز، التداخل السردي في المتن الحكائي، منشورات مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها، بسكرة ، 2010، ص: 113، 114.
- 15- المصدر السابق، ص: 7، 8 .
- 16- المصدر نفسه، ص: 21 .
- 17- روجيه غارودي، ص: 37.
- 18- المصدر نفسه، ص: 40 .
- 19- المصدر السابق، ص: 44 .